



◆ الروح المدنية والوطنية لدى مواطن من مدينة كلاما (قالمة) نكتاريوس الكلامي

د. محمد خير أورفه لي

ملخص:

شخصية من مدينة كلاما (قالمة) عاصرت القديس أوغسطين خلال النصف الثاني من القرن الرابع ق.م إلى بداية القرن الخامس وهي شخصية نكتاريوس الكلامي. حيث عرفت تلك الفترة بالصراعات بين الوثنيين والمسيحيين التي كانت تؤدي إلى الصدام خاصة في الأعياد والاحتفالات الدينية الوثنية الممنوعة من طرف الهيئات الرومانية، وتكون النتيجة ممارسة العنف ضد رجال الدين المسيحيين والكنيسة. وقد كان دور نكتاريوس الكلامي كبيرا في إحداث المصالحة بين الطائفتين وذلك بمراسلاته إلى القديس أوغسطين التي تظهر من خلالها روح المواطنة لديه وكذا ثقافته الواسعة في علوم الفلسفة والدين.

Résumé:

Un notable de la ville de Guelma contemporain de Saint Augustin, évêque d'Hippone qu'a vécu pendant la moitié du IV.ème siècle et au début du V.ème siècle pendant cette période, le conflit entre le paganisme et le christianisme était encore fort. Des fêtes païennes



célébrées par les habitants de Guelma devenaient interdites par l'état romain et terminaient par l'exercice de violence contre les chrétiens et contre l'église.

En essayant d'intervenir, Nectarius écrit plusieurs lettres à St. Augustin qui montrent l'esprit du nationalisme et civique ainsi que l'amour que portait cette personne à sa ville et décèlent sa culture et ses connaissances philosophiques et religieuses.

كانت المعتقدات الوثنية سائدة في شمال إفريقيا خلال فترة طويلة من العصور القديمة ومنها منطقة كلاما (قالة). فشواهدا متوفرة بقدر واف منذ بدايات الفترة النوميدية البونية ومنها أماكن العبادة والنصب التذكارية والكتابات التي تعطي أهمية كبرى لآلهة الخصب التي لها علاقة بالزراعة والنسل. ومع انتشار المسيحية وخاصة خلال القرن 4م، نلاحظ قيام صراع شديد بين المتعلقين بالوثنية والمتعصبين لها من جهة ومعتنقي المسيحية من جهة أخرى، بحيث أخذت أحيانا طابع العنف. هذا ونجد في مدينة كلاما أن قسما كبيرا من السكان بقي متعلقا بالوثنية إلى بداية القرن 5م. ففي عام 408م قامت أحداث عنف ضد المسيحيين، وتم التعدي عليهم دون تدخل السلطات البلدية التي لم تعمل شيئا لمنعها، بل وربما أنها كانت تحرص عليها(1).

إن تلك الأحداث كانت مناسبة لتبادل الرسائل بين أوغسطينوس Augustinus أسقف مدينة هيبون (عنابة) وأحد الشخصيات المرموقة والأرستقراطية في مدينة كلاما يدعى نكتاريوس Nectarius. وهي المراسلات التي سمحت لنا بالتعرف على الأحداث وعلى جانب هام من تفكير وشعور وأحاسيس سكان المدينة. ففيها نجد ذلك الشعور الوطني للمواطن نحو المدينة والافتخار بالانتساب لها وخدمة مصالحها والدفاع عنها والمواطنة فيها. ومنها تعرفنا كذلك على ثقافة هذا المواطن الأرستقراطي ومعرفته لكثير من الفلاسفة والأدباء والاستشهاد بهم.

تمثلت هذه الأحداث -حسب الأسقف أوغسطينوس-(2) في إقامة أعياد وثنية في الربيع تمنعها قوانين رومانية كانت قد سنّت حديثا (ربما هي قوانين الإمبراطور



هونوريوس في 15 نوفمبر 407م). هاته الأعياد ربما كانت عبارة عن موكب ذي طابع ديونسي، حيث يجري فيه الرقص والموسيقى والمجون. ولذلك احتج رجال الدين المسيحي أمام السلطات البلدية على هذا النوع من الاحتفالات الوثنية الممنوعة قانوناً.

وكان بوسيديوس Posidius أسقف المدينة قد ذهب بنفسه إلى المجلس البلدي لينبه السلطات إلى منع القوانين لمثل هذه الطقوس. إلا أن الوثنيين قاموا بالاعتداء على مبنى الكنيسة ورجال الدين برمي الحجارة، ثم أحرقوا الكنيسة وقتلوا أحد رجال الدين المسيحيين.

خلال هذا الوقت لم تفعل السلطات البلدية شيئاً لمنع العنف، بل امتنعت حتى عن تقديم المساعدة للضحايا، وذلك تجنباً منها لغضب الطبقة العليا المنفذة في المدينة وسيطرتها عليها، وكانت معروفة بعداؤها للكنيسة. إن العامة (كما لاحظ أوغسطينوس) لا تجرؤ على ارتكاب هاته الأعمال وهي تعلم بأن الطبقة الحاكمة في المدينة معارضة. وفي رسالة أخرى يقول أوغسطينوس بصراحة أن الأحداث لم تكن غوغائية من عامة الشعب. وإنما التعصب الوثني وجد أصوله في الطبقة الأرستقراطية والمجلس البلدي للمدينة(3). ونظراً لخطورة الوضع والعواقب الوخيمة المترتبة على تلك الأحداث وهي محاكمة مرتكبي العنف وعقوبة الإعدام المنتظرة لهم، فإن أحد أعيان المدينة المسنين ويدعى نكتاريوس Nectarius، يتدخل لدى أسقف مدينة هيبون في هذه القضية الخطيرة ويحاول طلب العفو لهم من خلال عدد من الرسائل، حتى يبلغ نتيجة.

وفي هاته الرسالة يرينا نكتاريوس الشعور والاعتبارات النبيلة التي يجملها لمدينته كلاًما التي يعتبرها وطنه. هذا الحب قد نما وزاد -على حسب قوله- مع الشيخوخة. فرغم سنه المتقدمة، لم يكن في منأى عن المسائل والأمور المتعلقة بالمدينة. فقد قبل الدفاع عن مواطني مدينته، إذ كان يستطيع أن يرفض طلبهم في أن يكون المدافع عنهم، وهذا رغم المناصب العليا التي كان يشغلها في البلدية والتي بوائت مكان الصدارة في المدينة. لقد قبل الدفاع عن مواطنيه بدافع حبه القوي لمدينته الوطن. وفي ذلك يقول: «كم



هو كبير الحب الذي نكنه للوطن! إنني لن أقول لك بنص -أوغسطين- شيئا عن ذلك لأنك نشأت أيضا على معرفته. إنه في حقيقة الأمر الوحيد الذي يحظى بأولويته على المحبة الواجبة للوالدين، إذا توفر للناس الطيبين حد معين في الحياة للحصول بعدها على العناية التي يستحقونها. فإنني أستحق الآن أن أكون معفيا تماما من هاته الأعباء. ومع كبر سني فأنتي أستحق أن أكون بعيدا عن هذه الأمور. ولكن طالما حب المدينة والتعلق بها يزدادان يوما بعد يوم كلما اقتربنا أكثر فأكثر من نهاية حياتنا، وازدادت فينا الرغبة لترك هذا الوطن مزدهرا وفي حالة جيدة. ومما أسعدني جدا في هذا الخطاب الذي كلفت به هو أن يكون موجها لشخص مثقف ومتكون في كل المجالات. ففي مستعمرة كلاما توجد أشياء كثيرة أعزها، سواء لأنني ولدت فيها أو لأنني قدمت لها خدمات جليلة»(4).

وفي رسالة ثانية يطلب نكتاريوس التدخل لكي تمنع مصادرة أملاك هؤلاء المتهمين حيث يقول بأن الموت أهون على هؤلاء من العيش في فقر وبؤس. ويظهر نكتاريوس هنا مرة ثانية في رسالته الروح الوطنية والمحبة الكبيرة للمدينة التي يدافع عنها(5). وهاته الرسالة منمقة بشكل كبير ومزودة باستشهادات لأدباء مشهورين من العصور القديمة أمثال سيسرون Cicéron وفرجيل Virgile والفلاسفة الرواقيين. فقد اختير نكتاريوس كمتكلم باسم أعيان كلاما الذين يدينون بالوثنية ليس بصفته مسؤولا عاليا قديما في البلدية فقط، بل لكونه أيضا رجل ثقافة واسعة.

وفي هاته الخطابات نجد أفكار الرجلين حول مفهوم المدينة وفلسفة نظامها. فالأسقف أوغسطينوس يطرح وجود المدينة السماوية والمدينة الأرضية، والتعارض بينهما مصور فيها طبقا لفلسفة الديانة المسيحية، فهي مدينة الله. بينما يوضح نكتاريوس اعتقاده وأفكاره بكل وضوح حول المدينة ونظامها حسب التقاليد والفلسفة الوثنية حيث يرى وجود التواصل بين المدينة في عالمنا الأرضي وبين عالم الآخرة. وبأن المواطن الصالح الذي يخدم مدينته خلال حياته في العالم الدنيوي سيكون مصيره بعد مماته الخلود في السعادة الأبدية في عالم الآخرة(6).



وهكذا كانت جهوده في الدفاع عن مواطني مدينته عملا هاما اقتضته مشاعر الانتماء إلى مدينته، ونكتاريوس لم يكن مدفوعا بصفة شخصية، بل كان مفوضا من قبل المجلس البلدي لكلاما. فهو يقول بأنه قبل المسؤولية بحرية وليس على أساس الوظيفة التي كان قد شغلها، لأن سنه يسمح له أن يكون في منأى عن ذلك.

من هنا نستنتج قوة الشعور المدني لمواطن مدينة كالأما خلال هاته الفترة المتأخرة من العصور القديمة، حيث ينشأ السكان على هذا الحب -كما يقول- وعلى كل فإننا نستشف في كتاباته هذه عدة أمور أهمها:

- الشعور المدني والوطني للفرد نحو المدينة والافتخار بالمواطنة فيها وخدمتها. فالوطن بالنسبة له هي المدينة، والانتماء لهما فخر واعتزاز. والمواطن الصالح هو الذي يخدم مدينته ويعمل على أن يبقياها في حالة رخاء وازدهار دائمين، وذلك عملا بالاعتقاد بأنه بعد مماته يمكن أن يذهب لحياة النعيم في الآخرة مكافأة له على أعماله المفيدة للمدينة.

- تعلق قسم هام من السكان وخاصة الطبقة الأرستقراطية للمدينة بالوثنية حتى بداية القرن 5م.

- ثقافة أحد المواطنين البارزين الواسعة في المدينة سواء في اللغة أو الثقافة والعلوم من معارف وأداب وفلسفة. فهو يستشهد بأدباء وفلاسفة قدامى أمثال فيرجيل وسيسرون والرواقين.

- كما تظهر أفكار السكان حول المدينة والعلاقة في الاستمرارية بين المدينة الدنيوية والأخروية، فإن المواطن الصالح الذي خدم مدينته سيكون مصيره النعيم الأبدي في العالم الآخر.

وأخيرا علينا أن نطرح السؤال حول الفترة التي عاشها نكتاريوس؟ ففترة الأحداث هذه والتي تدور حولها الرسائل كانت قد جرت ما بين حوالي 408-410م. وفيها نجد بأن



هذا الشخص كان مسناً ربما كان قد تجاوز الستين. وهذا معناه أنه قد عايش النصف الثاني من القرن 4م بكامله وبدايات القرن 5م.

الهوامش:

St. Augustin, Epistularum, XCI, dans Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum (C.S.E.L.), - (1) vol XXXIII, sect. II, p. 432; C. Lepelly, Les cités de l'Afrique romaine au bas-empire, Paris, Etudes augustiniennes, 1979-1981, t. 2, p. 97 et suiv. K. Kotula, Deux pages relatives à la réaction Païenne; Les troubles à Sufes et à Calama, dans Actes Universalis wratislavis wratislaviensis, 205, 1974, p. 96-97.

والمقال بالبولونية مع ملخص له بالفرنسية.

St. Augustin, Epist, XCI, dans C.S.E.L., XXXIII, II, p. 427-435. - (2)

Id, Epist. CIII, dans C.S.E.L., XXXIII, II, p. 578-581. - (3)

"Quanta sit caritas patriae, quoniam nosti, praetereo: sola est enim quae parentum iure uncat affectum; cui si ullus esset consulendi modus aut finis bonis digne iam ab eius munirebus meruimus excusari. sed quoniam crescit in dies singulos dilectus et gratia ciuitatis, quantumque aetas fini proxima est, tantum incolumen ac florentem reliquere patriam cupit, idcirco gaudeo primum, quod apud instructum disciplinis omnibus uirum mihi hic sermo est institutus. In calamensi colonia multa sunt quae mrito diligamus, uel quod in ea geniti sumus, uel quod eidem magna contulisse uidemur officia", St. Augustin, Epist. XC, dans C.S.E.L., XXXIII, II, p. 426-427.

Id, Epist. CIII, dans C.S.E.L., XXXIII, II, p. 578-581. - (5)

Ibid, p. 579-580. - (6)

وهذه النظرة في مكافأة المواطنين الصالحين لمدينتهم الذين قدموا خدمات جلّى، بالخلود الأبدي المقدس في عالم السماوات هي على الأكثر مقتبسة من أفكار سيسرون وفلسفته حول الحياة الآخرة التي يطرحها في كتابه الجمهورية: Cicéron, De Republica, VI, 8, 13, 14, 16, 24, 26.

ففي الجزء السادس الذي يروي فيه حلم سيبون Scipion, يشرح من خلاله مهمة المواطن في هذه الحياة من زرع العدالة والتحلي بالأخلاق والقيام بالواجبات المفروضة للوطن وهي كلها الطريق الذي يجب اتباعه للوصول إلى السماء.

Id, VI, 16.

ففي السماء يوجد مكان محجوز لكل الذين خدموا مصلحة الوطن وعملوا على إنقاذه وإعانتته وجعله كبيراً، إنه مكان النعيم للحياة الأبدية.

Id, VI, 13.

والأموات ليسوا أمواتاً بمعنى الكلمة وإنما هم في الحقيقة أحياء. وبالموت قد تخلصوا من رباط وقيد الجسد الفاني وتحررت أرواحهم التي هي خالدة في السماء.

Id, VI, 13, 16, 24.